جهود المستشرقين: ليون قوتييه ودوكات قوسطاف
في تحقيق التراث العربي الإسلامي

د/ بوركبة محمد

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران

التراث بمعناه الواسع، هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أي كان أنواعها، أو بمعنى آخر هو كل ما ورثته الأمة وتركته من إنتاج فكري وتاريخي وحضاري، سواء فيما يتعلق بالإنتاج العلمي والثقافي بالآداب بالصور الحضارية التي ترسم واقع الأمر ومستقبلها[1].

فالتراث الحامل للقيم كلها يعطي حياة الأمم والمجتمعات والشعوب طابعا ولونا مميزا، وتكتسب منه أسس بناء الإنسان فيها، ومن ثم يتحدد على أساسها نوع ومجال فكرها الديني والدنيوي الذي تعتنقه.

فما التراث إلا حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات بأشكالها المختلفة، ومناحيها المتعددة التي بالحياة الفكرية والعلمية والدينية والدنيوية. فهو عميق الجذور في الأمم، لذلك فإنه يمثل عقيدتها وفكرها وعقلها وشخصيتها، بل هو الذي يميز أمة عن غيرها من الأمم، أي أنه ذات الأمة. ولعل أكثر شيء إدراكا في أهمية التراث ووجوب الاهتمام به ودراسته أمرين:

- أولا:

أنه يربط شخصية الأمة بماضيها ويجعلها بارزة بين الأمم[2].

- ثانيا:

أنه يكشف أشياء جديدة تستنير بها الأفكار المعاصرة والدراسات الحديثة، بل كثيرا ما يفتح الأذهان منها وتؤدي على ابتكار أشياء جديدة مستندة إلى أصول تاريخية قديمة فيكون لها من التفريعات ما يتناسب مع واقع الأمة وواقع البيئة الجديدة التي يعيشها الإنسان[3].

فإن الدراسات الحديثة التي اهتمت بالتراث العربي الإسلامي والجزائري، وعلى رأسها الدراسات الإستشراقية:

– أولا: الدراسات الإستشراقية:

تناول المستشرقون تراثنا العربي الإسلامي بالكشف والجمع والفهرسة، وعمدوا إلى نشره وتحقيقه وترجمته ودرسته والتصنيف فيه. وقد شملت أبحاثهم مجالات متعددة حيث بدأوا في القرن التاسع عشر بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية، في مختلف بلدان العربية والأوربية والأمريكية. فنشطت هذه الجمعيات في إصدار المؤلفات والمطبوعات المتنوعة والمجلات.

وكثرت الدراسات المتصلة بالإستشراق ونتاجات المستشرقين، وانقسم الباحثون والدارسون المسلمون في مواقفهم إزاء حركة الإستشراق، حيث رأى فيها البعض مؤامرة استعمارية تتوخى السيطرة الغربية على العالم العربي والإسلامي على المستويات الفكرية والثقافية والعلمية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما البعض الآخر فقد قدر واعترف بأعمال ومناهج وأفكار المستشرقين حول دراسة التراث العربي الإسلامي[4]. ونحن إذ يخامرنا نفس الهدف، وهو عدم تبديد الجهود نرى من المفيد ألا نتجاهل هذا التراث الضخم من النصوص والبحوث التي أنتجاها المستشرقون. وفي هذا الصدد يقول نجيب العقيقي:" فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة العلمية... فكأننا نأبى أن يكون تراثنا جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية، وأن طي نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة، في حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا التعاون في نشر ذخائر كل أمة في العلوم والفون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والإختلاف فيها"(*).

إن هذه الجهود الإستشراقية تؤكد مدى أهمية وخطورة التراث العلمي الثقافي العربي الإسلامي عامة والجزائري خاصة، الذي لو لم يجدوا فيه نفعا آنيا وإثراء ما بعديا لحضارتهم لم يصرفوا له كل هذه العناية التي تمثلت في جمع المصادر والمخطوطات العربية وصيانتها وفهرستها والتعريف بها ثم تحقيقها ودرستها ونشرها[5].

ولكن الحقيقة التي يجب أن تقال: ليس باستطاعة أحد أن يخفي عطاء المدرسة الإستشراقية في ميادين البحث العلمي والأدبي والتاريخي والحضاري، من تأليف وتحقيق ونشر وبحث وتنقيب على كل صغيرة وكبيرة من تراث هذه الأمة الخالدة، وتراثها الذي كاد أن ينسى ويطويه الزمن والنسيان ويتعرض للإهمال والاندثار، لولا جهود أمثال هؤلاء المستشرقين في إخراجه للنور وحمايته من الضياع.

نعطي أمثلة على هؤلاء المستشرقين:

- **أولا: جهود المستشرق الفرنسي ليون قوتييه LEON-MARIE-FELIX GAUTHIER في تحقيق المخطوطات:**

ولد ليون قوتييه في مدينة سطيف بالشرق الجزائري في 18 جانفي 1862م. تلقى تعليمه الثانوي في الجزائر العاصمة وحصل على شهادة البكلوريا في سنة 1880م ثم دخل المدرسة العليا للآداب بكلية الآداب في مدينة الجزائر وكانت أنشئت في سنة 1881م، وقام بالتدريس فيها جماعة من الفرنسيين البارزين آنذاك نذكر منهم الناقد الأدبي المشهور، جول لومتر JULES LEMAITER، وموريس قاي MAURICE WAILLEالذي قام بحافر مهمة عن الآثار الرومانية في الجزائر[7].

سافر قوتييه إلى مدينة ليون ليختم دراساته للحصول على شهادة الليسانس من كلية الآداب بجامعة ليون في سنة 1882م. ثم حصل على التأهيل الجامعي في سنة 1886م، وعين مدرسا للفلسفة في مدرسة دول الثانوية في سنة 1886م. ولأسباب صحية اعتزل التدريس فترة من الزمن. ثم استأنف التدريس في سنة ثانوية بلوا BLOI سنة 1891م.

ثم عاد إلى الجزائر في سنة 1895م، وعمل مدرسا للفلسفة في ثانوية مدينة بليدة، وفي السنة التالية أصبح مدرسا للآداب في مدرسة مدينة الجزائر.

وبعد أن حصل على دبلوم أو شهادة اللغة العربية، كلف بتدريس الفلسفة في المدرسة العليا للآداب بمدينة الجزائر في سنة 1899م.

وبعد أن حصل على دكتوراه الدولة من جامعة باريس في سنة 1901م عين أستاذا ذا كرسي لتاريخ الفلسفة الإسلامية في المدرسة العليا للآداب بمدينة الجزائر، واستمر في هذا المنصب حتى تقاعده في سنة 1932م وهو في السبعين من عمره وكانت قد تحولت إل كلية الآداب[8].

- **إنتاجه العلمي:**

أسهم في تاريخ الفلسفة الإسلامية في الأندلس.

فقد حصل على الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة باريس برسالتين:

1 - الأولى: " نظرية ابن رشد الحفيد في العلاقة بين الدين والفلسفة " باريس 1909م في 197 صفحة. نشرا وتحقيقا ودراسة. وبين قوتييه أن ابن رشد وضح وضوحا مبينا وجازما أن العلاقة بين ما يقرره العقل البرهاني وما تتفق به الشريعة الإسلامية، كل منهما يعبر عن الحق، والقضايا البرهانية العقلية هي حق، وما نطق به الشرع حق، والحق لا يضاد الحق بل يؤكده ويشهد له، أي ليس هناك تناقض بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة. فيكون مرجع ابن رشد النهائي هو العقل.

2 - والثانية التكميلية:" ابن طفيل أبي بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد طفيل الأندلسي: حياته ومؤلفاته "، رسالة تكميلية للدكتوراه في الآداب مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة باريس " باريس 1909م في 125 صفحة.

وكلتا الرسالتين دراسة مهمة، ومن المعالم الرئيسية في تأريخ الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث.

وعاد قوتييه بعد ذلك إلى مخطوط قصة " حي بن يقظان " لابن طفيل، تحت رقم 1214 بالمكتبة الوطنية الجزائر، فحقق نصها تحقيقا دقيقا أكاديميا وترجمها إلى اللغة الفرنسية، وصدرت الطبعة الأولى في الجزائر 1900م. ثم أعاد ترجمتها سنة 1936م.

– منهجه في التحقيق:

اتبع ليون قوتييه في تحقيق قصة :" حي بن يقظان " الخطوات التالية:

المقدمة تناول فيها تقديم المخطوط أو الكتاب بالتعريف به وتنبين قيمته العلمية، والتعريف بمؤلفه وعصره والظروف السياسية التي عاشها المؤلف ابن طفيل. ذكر مؤلفات ابن طفيل الفلسفية والشعرية والطبية والفلكية. وبين قوتييه نسبة الكتاب أو المخطوط إلى صاحبه بناء على ما تضمنه الكتاب من معلومات متخصصة بجانب من العلوم الفلسفية. ثم عرج على الأسس المنهجية في النشر والتحقيق.

أما المنهج المتبع في نشر وتحقيق الكتاب هي مقابلة بالنسخ والمقارنة بينهم، مقارنة سليمة كما ذكر عبد الرحمن بدوي موسوعة مستشرقين أن لم يذكر النسخ وأماكن وجودهم كما اعتمد شرح المصطلحات الفلسفية وتخريج بعض الرموز من القواميس أو من فقه اللغة الفيلولوجي. والتعريف الشخصيات غير معروفة تحديد الآيات وجعلها في قوسين. وجعل أقوال العلماء والفلاسفة والعلماء بين قوسين. ترك النصوص كما هي دون التصرف فيها. عنونة النص المحقق وترقمه. مراعاة أدوت الوقف والفصل والاستفهام والتعجب في محلها ووضع النقطة عند الانتهاء أو الجملة المستقلة عن غيرها ووضع الفاصلة بين الجملة في فقرة واحدة.

وأن الهوامش ظهرت في الترجمة الفرنسية والتحقيق في اللغة العربية، ولم تظهر فيه.

ذكر قوتييه آراءه في الهوامش بقليل من التفاصيل. وأن الهامش لا يتعدى سطرا أو سطرين.

عدم التطرق للمصادر والمراجع في الهوامش. عدم وضع الفهارس وجعل في آخر الكتاب فهرس عام للموضوعات.

– منهم الفلاسفة الذين استفادوا واعتمدوا على تحقيق قوتييه في كتبهم:

- إبراهيم بن عبد الله في كتابه:" رسالة حي بن يقظان " لابن طفيل.
- عبد الحميد محمود في كتابه:" فلسفة ابن طفيل ".

- فروخ عمر في كتابه:" ابن طفيل وقصة حي بن يقظان ".
- عبد الأمير شمس الدين :" الفكر التربوي عند ابن طفيل ".
- فاروق سعد:" رسالة حي بن يقظان ".
- عبد الرحمن بدوي:" ابن طفيل رياض الفكر ".
- كامل عباد في كتابه:" فلسفة ابن طفيل ".

وبعد نشر وتحقيق كتاب قصة حي بن يقظان عاد إلى العالم والفيلسوف والفقيه المالكي ابن رشد الحفيد فخصه من جديد بكتاب شامل في مجموعة " كبار الفلاسفة " التي كان يصدرها الناشر ألكان ALCAN ومن بعده الناشر أي منشورات الجامعية الفرنسية PRESSES UNIVESITAIRES DE FRANCE بعنوان ابن رشد.

ونشر وحقق وترجم كذلك " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال " لابن رشد الجزائر 1905م - 1948م. ونشر وحقق نصوصه وبين أن الكتاب هو تأصيل لشرعية الفلسفة الإسلامية.

ونشر وترجم كتاب:" الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة "، هو محاولة تصحيح العقيدة الإسلامية الصحيحة على البيان والبرهان. وترجم كتاب:" تهافت التهافت ". لنفس المؤلف، نقض فيه كتاب الإمام الغزالي المسمى "تهافت الفلاسفة"، هو من أشهر كتبه.

ونشر وحقق وترجم كتاب :" كتاب ***الدرة الفاخرة*** في كشف علوم الآخرة" للحجة الإسلام أبي حامد الغزالي في سنة 1925م**.

ولما كان أستاذا في مدرسة الآداب العليا في الجزائر وأقام في الجزائر عدة سنين. فقد عني بتحقيق بعض المسائل المحلية هناك، وكتب مقالا بعنوان " المسألة الخاصة بسكان الجزائر الأصليين والمسلمون الفرنسيون في شمالي إفريقية تحليل لكتابين حديثين " الجزائر 1906م في 08 صفحات. وهذان الكتابان هما:" قضية مرجريت أمام محكمة الجنايات في محافظة الهيرو HERAULT"، تأليف كميل برينال CAMILLE BRUNEL .

والثاني هو كتاب :" المسلمون الفرنسيون في شمالي إفريقية " تأليف إسماعيل حامد وكان قد نشر هذا المقال في :" مضبطة الجمعية الجغرافية في الجزائر وشمالي إفريقية "[9].

ومن آثاره العلمية الهامة: له كتاب في تاريخ الفلسفة بعنوان:" المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية " ترجمة محمد يوسف موسى.

توفي قوتييه ليون في لاردوت إحدى ضواحي الجزائر في 11 مارس سنة 1949م.

- **ثانيا: جهود المستشرق الفرنسي دوقات قوسطاف في تحقيق المخطوطات:**

ولد دوقات في مدينة أورانج ORANGE في 1824م، ودخل مدرسة اللغات الشرقية في باريس وسافر في بعثة علمية إلى الجزائر في سنة 1845م.

وفي سنة 1882م كلف بتدريس تاريخ وجغرافية الشعوب الإسلامية في مدرسة اللغات الشرقية[10].

– إنتاجه العلمي:

عمل المستشرق الفرنسي دوقات على كتابة ونشر وتحقيق وترجمة كل المخطوطات التي لها صلة بالعلوم النفعية للمجتمع الفرنسي أولا ثم المجتمع الغربي فبدأ بـ:

1 - " دراسة ونشر وتحقيق كتاب:" زاد المسافر قوت الحاضر " لأبي جعفر أحمد الجزار القيرواني، وهو كتاب نفيس في العلوم الطبية وكتب عنه مقال في جا سنة 1853م برقم 04- وتقع في 68 صفحة. بين فيه المستشرق دوقات أهمية العلوم الطبية في حياة المسلمين وكيف استطاع هذا الأخير أن يترجمها إلى اللغة الفرنسية حتى يستفاد فيها في المجتمع الفرنسي وفيما بعد إلى إلى لغات أخرى. ثم

2 - نشر ودراسة :" سند الراوي في الصرف الفرنسوي لأحمد فارس الشدياق ولقوستاف دوكات " هو عبارة عن مخطوط ثم كتاب مدرسي وقاموس دقيق يعلم اللغتين العربية والفرنسية وأنشأه في مدينة باريس، وطبع في باريس المطبعة الإمبراطورية سنة 1854م في 128 صفحة.

3 - نشر ودراسة وتعليق :" الملك النعمان أيام سعده وأيام نحسه، مستخرج من قصة عنترة مترجم من اللغة العربية مع تعليقات " ظهر في جا برقم 01 في 35 صفحة.

4 - نشر وتحقيق المجلد الأول والمجلد الثاني والكتاب الثامن من كتاب:" نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" للمقري التلمساني مطبعة ليدن سنة 1855 – 1861 م .

5 - نشر وترجم:" كتاب الأمير عبد القادر الجزائري "

6 - نشر :" تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر " باريس 1858م في مجلدين 1868 – 1870م من القطع الصغير 16/1.

7 - نشر:" تاريخ الفلاسفة والمتكلمين المسلمين من 632 إلى 1258م، مناظر من الحياة الدينية في الشرق" باريس 1887، ويقع في 44 – 387 صفحة.

توفي دوقات في بارجول BARJOLS في محافظة LE VER سنة 1894م[11]

الهوامش:

(1)– حسين محمد سليمان: التراث العربي الإسلامي، دراسة تاريخية ومقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص :13.

(2)– حسين محمد : التراث العربي الإسلامي، ص:58.

(3)– حسين محمد: التراث العربي الإسلامي، ص:59.

(4)– بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير عمر الجزائري: فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، واقع التراث الجزائري الأصيل بين المعلوم والمجهول، مراجعة وتقديم عثمان بدري، الطبعة الأولى 2002م، الجزائر، ص ص:145–146.

(*)– نجيب العقيقي، المستشرقون الجزء الأول، المقدمة.

(5)– محمد بن معمر: منهج ليفي بروفنسال الاستشراقي في تحقيق التراث الغرب الإسلامي، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 07، 1422هـ/2001م، دار الغرب الإسلامي، ص:309.

(6)– مجلة المخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ص:05.

(7)– عبد الرحمن بدوي: موسوعة مستشرقين، الطبعة الرابعة، 2003م، ص:194.

(8)– عبد الرحمن بدوي: موسوعة مستشرقين، ص:195.

(9)– عبد الرحمن بدوي: موسوعة مستشرقين، ص ص:195–196.

(**)– البدوي، الموسوعة ص 118، والعقيقي، المستشرقون، ج1، ص240، ومجلة تاريخ الفلسفة عدد1928؛ ومجلة تاريخ الأديان عدد 1929.

(10)– عبد الرحمن بدوي: موسوعة مستشرقين، ص:253.

(11)– عبد الرحمن بدوي: موسوعة مستشرقين، ص:253.